الخـــطاب القـــرآني
التواصل السمعي البصري

أ.د. أبوبكر حسيني
جامعة ورقلة

اللغة ظاهرة إنسانية وجدت مع الإنسان منذ وجد، و هي من أخص خصائصه ، و بها فضل على سائر المخلوقات، لارتباطها بالعقل، و لا تزال هذه الظاهرة، إلى يومنا هذا، لغزا بحاجة إلى الكثير من الدراسة و التحليل، و لا يزال الكثير من أسرارهـــا ينتظر التفسير، بل و لا زالت الدراسات اللغوية، و النفسيـــة و الاجتماعية ، و غيرها تطالعنا كل يوم بالجديد حولها ، و حـــــول علاقتها بالإنسان و الحياة.

لقد تناول البحث في اللغة شتى القضايا المرتبطة بها، و لعل أهمها أشكال التواصل بين المتخاطبين، على اعتبار أن اللغة عماده و أساسه، و اللغة التي للتواصل مستويات عدة، و قد أجاد الجاحظ في ذكرها، بل و في ترتيبها أيضا فقال: " و جميع أصناف الدلالات على المعاني من لفظ و غير لفظ خمسة أشياء لا تنقص و لا تزيد، أولها اللفظ، ثم الإشارة، ثم العقد، ثم الخط، ثم الحال التي تسمى نصبة " .[1]

الملاحظ هنا أن الجاحظ جعل لغة المشافهة في المرتبة الأولى، و ســـماها اللفظ، و جعل الكتابة في المرتبة الرابعة، و سماها الخط، و تقـــديم الفـــظ(الـــشكل المنطوق للغة)عند الجاحظ على الشكل المكتوب، عزره ابن جني بعد ذلك حين جعل اللغة رأسا أصوتا فقال " أما حدها فإنها أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم "[2] و لا نتصور أن ابن جني هنا يلغي صور التواصل الأخرى ،بل كأنه أراد أن يقول إن أعلى مستويات اللغة التي للتواصل أن تكون أصوتا (لغة شفوية) .

و المتأمل في أساليب الأداء عند المتكلمين يلاحظ تفاوتا واضحا في طريقة الأداء ، فلا نتصور أن الناس مهما تقاربت مواطنهم و أوصافهم و أشكالهم و أمزجتهم سيتماثلون في طريقة أدائهم للغة ،فكيف إذا تباعد ذلك كله ،و لعل هذا من ملامح الإعجاز الرباني و قوته في الخلق و الحياة ،قال تعالى ﴿**و من آياته خلق السموات و الأرض ،و اختلاف ألسنتكم و ألوانكم**﴾ (الروم: 22) ،و الصحابة الكرام على جلالة قدرهم لم يكونوا على مستوى واحد في أدائهم للقرآن الكريم ، و نتصور أن اختلاف الألسنة لا يكمن فحسب في اختلاف اللغات فهذا ظاهر و جلي ،لكنه يكمن أيضا في اختلاف الأداءات في اللغة الواحدة أو اللهجة الواحدة ،بل و إلى أبعد من ذلك نقول إنها عند الإنسان نفسه في أداءين متعاقبين.

إن اختلاف الألسنة في الخطابات المختلفة مظهر طبيعي من مظاهر حياة البشر ، و هو من دلائل القدرة الإلهية ، توازي في دلالاتها رفع السماوات بغير عمد ، و إرساء الجبال ،و اختلاف الألوان و الأشكال ،و ما اختلاف اللهجات و الأداءات إلا شكل من هذا الإعجاز ،و قد أقر القرآن هذا المبدأ حينما أنزل بلغات (لهجات) متعددة ،تلبي الحاجيات اللغوية للمجتمع العربي كله.

إن المسلمين جميعا ،عربا و عجما ،يدينون بالولاء للعربية لأنها الوعاء الذي يحمل الدين و الثقافة و الفكر ،و اللغة العربية منذ القديم كانت هي اللغة الرسمية في جزيرة العرب على اختلاف مواقعهم ،و كلما توسعت هذه اللغة في أرجاء الأرض شرقا و غربا بفعل انتشار الإسلام حملت معها هذا المعنى في نقوس معتنقيه.

شرف عظيم حظيت به اللغة العربية بجعلها لغة الخطاب القرآني ، لغة الدين الخاتم ، فكان هذا الخطاب حجة الله على الخلق ،قد تحققت فيه معاني الإعجاز في جميع الجوانب ، و لعل المعجزة البيانية على رأس تلك المعاني و قد تجلت

مستويات الإعجاز في شتى الوجوه ، لعل في مقدمتها شكلي الخطاب القرآني المنطوق و المكتوب ،حيث تجلت فهما معا القوة في الإبلاغ،

أولا : الشكل المنطوق للخطاب : و يراد به الأداء الصوتي المسموع ، وهو خطاب يعتمد فيه على جهازي التصويت (جهاز الإرسال) و السمع ، وهو(جهاز الاستقبال) ،و لا يخفى على أحد ما لهذين الجهازين من التأثير و التأثر لدى الإنسان مرسلا كان أو مستقبلا ،و ارتباط الخطاب المنطوق بالسمع يجعله أقوى و أكثر تأثيرا لتعلقه بالمشافهة كما أسلفنا .

ثانيا : الشكل المكتوب للخطاب : و هو خطاب يعتمد فيه على البصر بشكل أساسي ،مع ما يصاحب البصر من عمليات عقلية و عصبية معقدة مرتبطة بالدماغ لاستيعاب دلالات هذا الخطاب ، و سنقف بتأن على تأثير الخطاب في شكليه (الأدائي و المكتوب) من خلال العلاقة الكامنة بين المسموع (الأداء) والمرئي (المكتوب).

ولم يقتصر الشكل المرئي للخطاب القرآني على رسمه بين دفتي المصحف فحسب، بل تجلي إعمال البصر فيه بأساليب عجيبة تلفت الانتباه، وتغري بالتدبر، فما أكثر ما أمرنا به القرآن الكريم من التأمل في الطبيعة والكون والحياة ﴿ **أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت، وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت، وإلى الأرض كيف سطحت**﴾. آيات كثيرة مرسومة على لوحة الطبيعة ليلا ونهارا، أو ليست تلك المشاهد المثيرة الكثيرة في السماء والجبال والأنهار والبحار.... خطابات ربانية مرئية ، بأشكال غير مكتوبة يعمل فيها الإنسان بصره ، أو ليس القارئ لآيات القرآن متعبد، والمتدبر لآيات الكون متعبد أيضا؟ بلى . والأغرب من ذلك أيضا: ألم يأمر الله تعالى نبيه (ص) عند أول أمر له بأن يقرأ ﴿ **إقرأ باسم ربك الذي خلق**﴾ ولم يكن الرسول (ص) يعرف القراءة ولا الكتابة فأي قراءة يطلبها منه، وهو

الأمي ، لا شك أن من معاني القراءة التأمل والنظر والتدبر في ملكـــوت الـــسماوات والأرض.

يبدو أن نشأة الكتابة (الشكل المرئي للخطاب) عند الإنسان ،بعد أن كان المعول عليه هو الأداء المنطوق ،شكل واضح من أشكال تخليد الإنسان للغته[3] فقد لاحظ أن أداءه سرعان ما يزول و يتبدد و هو بحاجة أحيانا إلى بقائه،و الاحتفاظ به ،و تأمل من قبل فلاحظ أن الأداء المنطوق محدود زماناو مكانا،بخلاف الكتابة فإنها مفتوحة زمانا و مكانا.

لقد وجدت الكتـــابة أساسا لتعكس اللغة المنـــطوقة ، و تفتح آفاقها زمـــانا و مكانا ، لكنها لم تستطع إلى يوم الناس هذا أن تعكس كل مظاهر النطق ،فالكتابة لا زالت عاجزة إلى اليوم على تلبية كثير من متطلبات الجانب المنطوق ،فعلى الرغم من حداثة الكتابة ، و قدم الجانب المنطوق بقدم الإنسان ، تبقى الكتابة تطالعنا كل حين بالجديد حول تجسيد الأداء المنطوق الذي يحوي بدوره الكثير من التفاعلات النفسية و الحركية و الإشارية ،كالفرح ، و الغضب ، و القلق ، و السرعة أو حركة اليد ، أو الرجل أو قسمات الوجه أو حركة العينين أو رفع الصوت أو خفضه... و غير ذلك من التشكلات العضوية ، و التغيرات النفسية التي تلازم اللغة المنطوقة.[4]

و قد تمكنت الكتابة لفترة أن تحقق جزءا يسيرا من التواصل على غموضها أحيانا و عدم دقتها أحيانا أخرى ، لكن الإنسان يتشبث بها ، و يلتزمها ، و يعتبرها جزءا من إرثه و حضارته ، و أحيانا تمثل ثقافته و هويته.[5]

لم يقتصر الخطاب القرآني ، بوصفه الخطاب الرباني الخالد لهذه الأمة على التواصل السمعي المبني على أساس التلقي الشفوي ، الذي انطلقت به الأمة منذ تأسيسها ، لكنه زواج بين المسموع و المقروء ، أي بين ما تعلق بالسمع ، وما تعلق

بالبصر ، وإذا كان عماد الأمة بإجماعها ،على تقديم الأداء المنطوق للخطاب القرآني ،فإن رسم القرآن (الشكل المكتوب) له مكانته و خصوصيته ،لا سيما و أنه جاء بأمر من رسول الله (ص) ثم الخلفاء الراشدين من بعده ،فلا غرابة في أن يكون لرسم المصحف هذا الشأن في تجسيد هذا الخطاب.

و لا شك أن الخطاب المسموع أكثر تأثيرا في الإنسان من الخطاب المرئي لأن تقاليد السماع في الكلام ،بحكم قدم اللغة الشفوية ،و حداثة تقاليد الكتابة جعلت الكلام المسموع يبدو أكبر أهمية من الكلام المنظور ،لأنه أدخل في الحياة من الكتابة و أوغل في سلوك الفرد و المجتمع [6] ،و وجود النبر و التنغيم في اللغة الشفوية المسموعة و هما من الظواهر السياقية ،جعلت الكلام المسموع أقدر على الكشف على ظلال المعنى و دقائقه من الثاني .[7]

إن الأداء المنطوق للخطاب يعمل الإنسان فيه السمع لإدراكه ، بينما يعمل البصر لإدراكه الخطاب المكتوب ، و استقبال المستمع للخطاب أو ما يسمى بعملية التلقي الشفوي سر من أسرار الخلق في الحياة أول عناصرها هو السمع ،في حين أن أول عناصر الخطاب المكتوب هو البصر و السمع مقدم على البصر في حياة الإنسان ،و في القرآن شواهد كثيرة على تقديم السمع على البصر عند الاقتران[8]، منها قوله تعالى: ﴿ **إن السمع و البصر و الفؤاد كل أولائك كان عنه مسئولا** ﴾ (الإسراء :36) ،و ﴿ **إنه هو السميع البصير**﴾ (الإسراء :01) و ﴿ **إن الله سميع بصير**﴾ (الحج : 61)... و لم يقدم الله البصر على السمع إلا في موضع واحد[9].

فالعلوم الحاصلة بالسمع أضعاف العلوم الحاصلة بالبصر ،فالبصر لا يدرك إلا بعض الموجودات القريبة المشاهدة بالعين ،أما السمع فيدرك الموجودات و المعدومات ،و الحاضر و الغائب ،و القريب و البعيد ،و بذلك يكون الخطاب ذو الطابع الصوتي أقرب إلى الإدراك و الفهم من الخطاب المكتوب ،فعند القراءة يبذل

الإنسان جهودا أكبر منها عند السماع ،و إعمال العقل في المسموع أقل منه في المكتوب.

و إذا ما تجاوزنا الخلاف بين الباحثين في توقيفية رسم المصحف العثماني لأسباب كثيرة ،قد تبدو موضوعية لكلا الطرفين ،و إذا كان الخطاب القرآني ذا تأثير عال في مستواه الصوتي المسموع ،فإن للقائلين بتوقيفية الرسم وجوه أخرى لإعجاز الخطاب القرآني في شكله المكتوب يقول خالد عبد الرحمن العك : " فإنا نقطع بأن القرآن الكريم قد كتب بين يدي رسول الله (ص) على مراد الله سبحانه،و ذلك لأنه سبحانه و تعالى يأبى أن يكتب كلامه على حالة تتنافى مع قدسيته وجلالته"[10] .

و يقول أيضا :" و من المقطوع به نقلا و عقلا أن القرآن الكريم كتب جميعه بين يدي رسول الله (ص) ،و أن الذين اتخذهم من أصحابه لكتابة القرآن حين نزوله كانوا على قدر رفيع من الثقة و العناية و الرعاية و الضبط و الإتقان و معرفة الكتابة العربية معرفة جيدة ، وأن ما أثبتوه من رسم النص القرآني بين يديه عليه الصلاة و السلام كان على غاية من قبول الله تبارك و تعالى له"[11]

و بناء على ذلك قد تضمن الرسم أسرارا كثيرة تدخل في باب مظاهر الإعجاز في الشكل المكتوب للخطاب القرآني المرتبط بالبصر منها : [12]

- ﴿ **و جاءو بسحر عظيم** ﴾ (الأعراف : 116) بغير ألف في (جاءوا).
- ﴿ **قالوا تالله تفتؤا تذكر يوسف** ﴾ (يوسف:85) بزيادة ألف (في تفتؤ) .
- ﴿ **و إنك لا تظمؤا فيها و لا تضحى** ﴾ (طه :119) بزيادة ألف في (تضمؤ).
- ﴿ **قال ما يعبؤا بكم ربي** ﴾ (الفرقان : 77) بزيادة ألف في (يعبؤ) .

- ﴿ **و الذين سعو في آياتنا** ﴾ (سبا : 5) بحذف الألف من (سعوا) .

- ﴿ **و السماء بنيناها بأييد و إنا لموسعون** ﴾ (الذاريات : 47) بزيادة يـــاء فـــي (بأيد).

و غير ذلك من المواضع الكثيرة الدالة على مظـــاهر التواصـــل الـــسمعي البصري في الخطاب القرآني ،[13] و خلاصة القول إن الخطاب القرآني تضمن فـــي تواصله مع مخاطبيه صورا صوتية مسموعة ذات تأثيرات عالية مستمرة ،و صورا مرئية مرتبطة بالبصر ،يعمل فيها المتلقي عقله بدرجة أكثر من سابقتها كما رأينا.

الإحـــــالات

(1) البيان و التبيين ، للجاحظ ، تحقيق عبد السلام هـــارون ، مكتبـــة الخانجي، القاهرة ، ط4 1975 ، ج1 ص 76.

(2) الخصائص ، لابن جني ، تحقيق عبد الحميد هنداوي ، دار الكتب العلمية، بيروت ، ط2 ، 2002 ، ج1 ص 87.

(3) إن حب الخلود كامن في نفس الإنسان ، و قد فطـــر عليه من بداية خلقه ،

و يروي لنا القـــرآن الكريم قصـــة شجرة الخـــلد بما يوضح لنا هـــذا التصور، ثم إن التاريخ الإنساني أعطى لنا صورا كثيرة من هذا القبيل ،مثل التحنيط لدى الفراعنة.

(4) تلقي اللغة بين محدودية الكتابة و انفتاح الأداء ،أبـــوبكر حـــسيني ،مقال بمجلة فكر و إبداع ،كلية البنـــات ،جامعـــة عـــين شـــمس (جمهورية مصر العربية) العدد 44 ،أفريل 2008 ،ص 125.

(5) علم الأصوات ،برتيل مالمبرج ،تعريب عبد الصبور شاهين ،مكتبة الشباب بالمنيرة ، جمهورية مصر العربية، 1988 ،ص 277.

(6) اللغة العربية معناها و مبناها ،تمام حسان ،دار الثقافـــة ،المملكـــة المغربية (د.ت) ،ص 46.

(7) اللغة العربية معناها و مبناها ،ص 47.

(8) صفاء الكلمة ،عبد الفتاح لاشين ،دار المريخ ،الريـــاض ،المملكـــة العربية السعودية ،1983 ،ص 200 و ما بعدها .

(9) و هو قوله تعالى ﴿ و لو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا و سمعنا فارجعنا نعمل صالحا﴾ (السجدة : 12) و تغير مبدأ التقديم و التأخير في هذه الآية ،لأن أول مـــا يفـــاجئ الانسان يوم القيامة مرئي مشاهد ،لا مسموع ،فجاءت الآية منسجمة مع هذا الحدث.ينظر : صفاء الكلمة : ص 204.

(10) تاريخ توثيق نص القرآن الكريم ، خالد عبد الرحمن العـــك ، دار الفكر دمشق ــ سوريا ط2، 1986 ، ص 52.

(11) تاريخ توثيق نص القرآن الكريم ،ص 52 ، و لمزيد من الاطلاع على أسباب توقيفية الرسم العثماني ، و إجماع جمهور العلماء عليه ،يراجع الصفحة 55 و ما بعدها.

(12) ينظر : تاريخ توثيق نص القرآن الكريم ، ص 59 ، وما بعدها.

(13) لقد كتب الشيخ أبو العباس أحمد بن البناء المراكشي كتابا أودع فيه مثل هذه المعاني بشكل عجيب ، تعطي تصورا رائعا حول إعجاز الرسم في القرآن الكريم ، يراجع : عنوان الدليل من مرسوم خـــط التنزيل ، لابن العباس بن البناء المراكشي بتحقيق هند شلبي ، طبع بدار الغرب الإسلامي ، بيروت لبنان.